الطريق إلى الحقيقة

الحمد لله وحده.. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. محمد صلى الله عليه وسلم.. وبعد.

في كثيرٍ من الأحيان.. يكون الشيءُ أقربَ للإنسان من أنفه أو أذنه، ثم نراه يسعى بعيدا للبحث عنه، ويجري هنا وهناك علّه يجدهُ أو يعثرُ عليه.. بل نراه أحياناً يَعمَى عنه ولا يُبصره...

وقديماً وحديثاً حارَ الفلاسفةُ ومن يُسمّون أنفسهم مفكرين.. حار هؤلاءِ في بحثهم عن الحقيقةِ.. فقد وجدوا أنفسَهم على هذه الأرض وفي أحضان هذا الكون ثم حاروا وتاهوا وتعبوا وقالوا لنا تعالَوا معنا نبحثْ عن المشكلةِ الكبرى.. المشكلةِ الغامضة.. مشكلةِ الوجود.. هكذا أطلقوا عليها.. مشكلةُ هذا الوجود.. ما هو؟ ما شأنُه؟ كيف وُجد؟ ومن أوجدَه؟ ومن نحن؟ وما هذه الأشياءُ من حولِنا؟ مشكلةٌ كبيرةٌ ورهيبةٌ لا ندري لها حلًا ولا نجد لها جواباً...

هل ما نراه حقيقةٌ أم أنه وهمٌ كبيرٌ؟ فبدأ كلٌّ منهم يَعصِرُ فكره ويضغطُ على أعصابهِ ويُفتّش في عقلهِ عن الجواب.. ثم جاؤوا.. هؤلاء الفلاسفةُ والمفكرون ويشاركهم أحياناً طبقات من الناس عليا وسفلى.. ماذا قالوا؟ لقد وُجد هذا العالم مصادفةً.. هكذا وَجد هذا الكون نفسَه.. كان عدماً ثم كان بالحظ.. بالعشوائية.. بالمصادفة.. وقالوا أيضا لا... الكون خَلقَ نفسه هكذا... خَلقَ نفسه فوُجد... بعد أن لم يكن موجودا.

ثم جاء عاقل منهم يقول.. لا لابد من خالقٍ.. من فاطرٍ.. ولكن ما هو على وجه التحديد؟ لابد أنهم مجموعةٌ من الخالقين تعاونوا على خلْقِ هذا الكون العجيب. وجاء أعقل وقال.. لا سوف يختلفون، فلابد أن يكون لهم كبيرٌ يأمرُهم وينهاهم ويُنسّق أعمالهم.. فهو كبيرهم وهم مساعدوه...

وجاء فيلسوفٌ كبير وقال.. لا إنه واحدٌ فقط.. له كُلّ الكمالِ وكُلّ الجمال.. ولكنه لم يَخلُق هذا الكون بل الكون خُلق شوقاً إليه.. أما هو فلا يعلمُ شيئا تفصيلياً عن هذا الكون.. إنه يعلمُ الكلّيات فقط. ثم

جاء فيلسوفٌ آخرَ يُبارزه في التفوق ويقول.. هو واحدٌ حقاً ولا يشابهُ المخلوقَ في شيء.. لذلك فهو بلا صفات.. لا يَعرِفُ نفسَه ولا يعرف ذاتَه لأن المعرفةَ والعلمَ صفاتٌ للمخلوق.. وهكذا ضربوا في التيه بلا دليلٍ.. دليلُهم عقلُهم أو حسهُم أو تخمينُهم أو أهواؤهم.

أيها القراء الأعزاء...

إن الحقيقة أقربُ إلينا من حبل الوريد.. أقربُ إلينا من أنفسِنا.. بل هي تَطُلّ علينا من كلّ الآفاقِ ومن كلّ الجهاتِ.. وتَنطِقُ الحقيقةُ من خلال كلّ الأشياءِ وكلّ الأحداث.. ما رأيُكم إن صَفعَ أحدٌ أحداً على قفاه ألا يبحثُ غاضباً عن هذا الذي صَفعَه؟! هبْ أنك قلتَ له لا أحد فهل يُصدّقك؟ هل لو كنت أنت مكانه فهل كنت لتصدّق ذلك؟!

أيها القارئ العزيز.. إن كان هذا في أمرِ صفعةٍ.. فما بالُ الناسَ لا يُؤمنون بخالقِ كلِّ شيء وصانعِ كلِّ شيء ومبدِعِ كلِّ شيء.

أنظر حولك.. فوقَك أو تحتَك.. عن يمينِك أو شمالِك.. في الأرضِ أو في السماء.. فماذا تجد؟

إنه الإبداعُ المذهلُ والجمالُ الفائقُ والتناسقُ الرائعُ الذي يَخلِبُ العقل ويَغلِبُ اللُّب..

مَنْ وراءَ هذا الإبداعِ العجيب؟ من بَنَى هذا الكونِ الرهيب؟ من يُصرّفُ ويحفظُ هذا العددَ والتنوّع الرهيب؟

إنه الله.. هذه هي الحقيقةُ العظمى والسرُ الأعظم. إنه اللهُ فاطرُ هذا الوجود كلِّه.. وكلُّ شيء دونَه عدمٌ مخلوقٌ أو فَناءٌ موجودٌ. إن تفحصْنا قليلاً في نفوسِنا.. فحَرِيٌّ أن يجعلنا ذلك ننحني لهذا الخالقِ الكريمِ العظيمِ "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". إن حياةَ كلَّ واحدٍ منا أُعجوبةٌ كاملةٌ ومذهلةٌ.. كلُّ ذرةٍ في كِيانِنا آيةٌ جليةٌ وبيّنةٌ ناصعةٌ على أن خالقَنا عظيمٌ وجليلٌ ورحيمٌ وجميلٌ وعليمٌ وكريمٌ...

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: 6] ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: 64] ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا

شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار: 6-8] ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: 1] .

ثم.. ثم ماذا.. هل تركَ هذا الخالقُ العظيمُ هذا المخلوقَ بلا رعايةٍ ولا حمايةٍ؟ أليس هو القائلُ في كتابة العزيز ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: 13] وقال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: 20] أليس هو القائل وقوله كلُّه صدقٌ وحقٌ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: 18].

هكذا.. لم يتركْنا خالقُنا هملاً.. بلا رعايةٍ منه ولا حمايةٍ.. وَرزقَنا من كلّ شيء. وبَقِيَ شيءٌ خطيرٌ جداً وهائلٌ جداً.. وهو أنْ نَعلَمَ لماذا خُلقنا؟ ولماذا رُزقنا؟ ولماذا يُكرِمنا كل هذا الكرم؟

كان لابدّ أن تأتيَ الإجابةُ من هذا الخالقِ العظيمِ.. ولقد أرسلَها لنا من فوقِ سبعِ سماواتٍ من خلال وَحيهِ الجليلِ الذي حملتهُ الملائكةُ الكرامُ إلى رسله المصطفيْن الأخيار يقول لنا لماذا كل هذا؟

يقول ربنا وربكم "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" كلمةٌ واحدةٌ (يعبدون).. غايةٌ واحدةُ (العبادة). وجاء كلُّ رسولٍ يقولُ نفسَ الكلمةِ الواحدةِ ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

فالعبادةُ غايةُ اللهِ من خلْقهِ.. وغايتُنا نحن في هذه الأرضِ هي العبادةُ.. والتي هي الخضوعُ الكاملُ والدينونةُ الكاملةُ للإلهِ الواحد.. نتلقّى منه بَرنامج حياتِنا ومنهجَ خُطواتِنا على هذه الأرض.. لأنه صاحبُ الأمرِ وهو الذي يَعلمُ ما يُريد منا ويعلمُ ما يُصلحُنا وما يَنفعنا وما يُفسدنا وما يضرُّنا.. ويُعلّمُنا كيف نُحقق عبوديَّتنا له وحدَه كما شاءَ حين خلقنا...

فكانت الكتبُ المنزّلةُ والشرائعُ المحكَمةُ لنتلقّى منها المرادَ الإلهيَّ.. ونُحققَ من خلالها العبادةَ والاستسلامَ لرب العالمين...

هكذا جاء جميعُ الأنبياءِ لِيَهدوا الناسَ إلى الطريق الصحيح ويُنيروا لهم دَربهم ويَحفظوا لهم حياتهم من أن تزيغَ مع الأهواءِ والشهواتِ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ

ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 153]. هكذا يُقدّر لنا ربُّنا أن الدينَ المقبولَ عنده مُمَثلٌ في طاعتهِ وحدَه والاستسلامِ له وحدَه. وفي التلقّي منهُ وحدَه وفي الرضى عنه وعن شرعه.. والفرحِ بأوامرهِ والانتهاء بنهيه. يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: 19]، ويقول ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ ﴾ [آل عمران: 85] صدق الله العظيم.

لا شيء غيرَ الإسلامِ.. ولا يكونُ الإسلامُ بلا عبادةٍ.. ولا تكونُ عبادةٌ بلا طاعةٍ.. ولا تكونُ طاعةٌ إلا بشرعهِ وكلمتهِ.. وقبل ذلك وبعدَه الإخلاصُ لله وحده وابتغاءُ وجهه ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: 5] ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ [الزمر: 14-15].

وهنا نصلُ إلى الحقيقةِ الكاملةِ ومقتضياتها الناصعةِ.. أن اللهَ هو الحقُّ وأنَّ ما دونَه هو الباطلُ.. وأنه لا إسلامَ إلا بالخلوصِ له.. والحبِّ له.. والطاعةِ له ولشرعه.. وأن غيرَ ذلك لا يكونُ إسلاماً ولا إخلاصاً ولا عبوديةً.

وآيةُ هذه العبوديةِ الظاهرةِ أن نُحكّمَ اللهَ وحدَه في كل شيء في حياتنا.. ونرفضَ كلَّ حكمٍ سِواه.. وكلَّ شرعٍ ليسَ من عندِ اللهِ.. وكلُّ قانونٍ ليس من وضعِ اللهِ.. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65] ويقول عز من قائل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.. الظَّالِمُونَ.. الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: 44، 45، 47]

والعبيد لا يُراجعونَ اللهَ.. ولا يَبحثونَ ورائَه.. ولا يتشكّكونَ في حكمهِ.. ولا يُقارنون حكمَ اللهِ بحكمِ المخاليقِ الذين لا يَعلمون ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: 140] ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50] .

وختاماً وتلخيصاً لهذا الكلامِ كلِّه.. الإسلامُ هو الاستسلامُ لله ربّ العالمين.. ولن نكونَ مسلمينَ حتى نُطبّق شرعَ الله كله في حياتِنا ونحن راضون ومطمئنون وواثقون أن في حكمِ الله الخيرَ لنا والعدلَ والحقَّ والطُهرَ والرخاءَ والنماءَ .. يقول الله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96] ويقول سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 66]

هكذا نكونُ مسلمينَ.. وهكذا نكونُ قد عرَفنا الحقَّ والحقيقةَ.. وكسَبنا خيريِ الدنيا والآخرةِ.

وإن لم نفعل فلا نلومنّ إلا أنفسنا...

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد...

الصادعون بالحق
The Proclaimers of the Truth